أبرز أخطائه

كان أبرز أخطائه هو اعتماده على عبد الحميد السراج في إدارة شؤون المكتب الثاني السوري، ووثوقه به بالرغم من كثير من التحذيرات جاءته من رجال داخل الجيش ومن خارجه، كانوا مخلصين للخط الوطني الذي تنتهجه سورية في معاداة المستعمرين، وعلى رأسهم أميركا في هجمتها الإمبريالية على الشرق الأوسط.. وخصوصا سورية، والتي ظهرت بوادرها بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة في دعم اسرائيل وفي مساندة دكتاتوريات في البلدان العربية تقوم لحمايتها والصلح معها..

كان للفريق ماض مشرّف في الجيش.. كان على رأس مدفعيته يحارب في فلسطين في جيش الإنقاذ، تلك المدفعية التي فعلت الأعاجيب، على حد قول فوزي القاوقجي، وأسلمت مواقعها للجيوش العربية قبل أن تسقط مدينة واحدة حين جاءها الأمر بالإنسحاب. وكان أخوه صلاح لايقل في نضاله عنه حين ذهب الى الصحراء الليبية مع فريق من الخبراء الأجانب ليلتقط السلاح الذي تركه رومل هناك من بين الألغام، ويزود به الجيش السوري.. لقد انفجر لغم في خبير ألماني وقتله على بعد متر منه. وكان الأخوان بزري في طليعة من قاوم الإستعمار الفرنسي وطرده من البلاد، وهما وحدهما اللذان سجنا في السجن المركزي في بيروت.. فهرب عفيف والتحق بالقوى الوطنية المحاربة في دمشق.. وكان كلاهما يحاربان الدكتاتوريات التي مرت على سوريا ويتعرضان للسجن.. وفي زمن الشيشكلي سرّح صلاح من عمله في رئاسة المكتب الثاني، وأرغم على إقامة جبرية في بيته. وكلاهما كانا دوما أنصارا للأنظمة الدستورية الديموقراطية في البلاد، فهي لو أخطأت تستطيع أن تصلح أخطاءها وتأخذ الجماهير بعين الإعتبار، على عكس الأنظمة الإستبدادية التي تتصرف فوق القوانين وإرادة الجماهير، وتلغي الشعب من اعتبارها، فتنعزل وتغرق في الأخطاء والفساد وشراء الضمائر..

لم يكن الفريق جاهلا بماضي السراج الذي كان لديه طموح مريض في دعم الدكتاتوريات دون مبدأ يشده أو يلجم نزواته، ولكنه كان يأمل أن يوظف ذكاءه الإجتماعي لخدمة الخط الوطني ومقارعة عملاء الإستعمار وكشف مؤامراتهم على سورية..

أتساءل لماذا فعل ذلك؟

لم يكن عفيف يسعى لتشكيل كتلة خاصة به في الجيش تضاف الى الكتل المختلفة فيه، وتجعل منه جيشا منقسما على نفسه. لم يكن لديه ذلك الطموح المريض للإستئثار بالسلطة، وكان همه الكبير أن يصهر الجيش كتلة واحدة في مناهضة الهجمة الإمبريالية على سورية. لقد فتحت المحاكمات التي كان يرأسها عينيه قبل سواه من القادة العسكريين في الوطن العربي على شراسة تلك الهجمة، فلم يهادنها أبدا ولم يخضع لها، حتى أن السفارة الأمريكية في عيد رأس السنة التي سبقت الوحدة كانت خالية من المهنئين خوفا على سمعتهم من أن يتهموا بالموالاة للهجمة الإمبريالية الأميركية!..

كان السراج يبدوفي ذلك الحين بأنه مخلص للخط الوطني الذي انتهجه اللواء بزري في الجيش، ولهذا كان أفضل من يكون له أذنا وعينا في البلاد..

أذكر أنه عندما كان يسمع تحذيرات مخلصين له في الجيش بسبب مبدئهم أوقضيتهم من السراج يقول لي: "اذا لم أثق بالسراج فبمن أثق؟" وكان من بين هؤلاء المخلصين ضباط فلسطينيون كانوا هدفا لنقمة السراج حين كشّر عن أنيابه بعد الوحدة، وظهر أنه في خدمة عبد الناصر الذي ماكان يريد أن يغضب أمريكا حينذاك، فكان أول ما فعله السراج هو كتابة قائمة بأسمائهم جميعا وعددهم مائتا ضابط، فسرحهم المشيرعبد الحكيم عامر على الفور مما أزّم العلاقة بين الفريق وعبد الناصر فهدد بالإستقالة.. واستدرج الى مصر وأقيل دون أن يتقدّم باستقال رسمية.. ولقد قرأ خبر استقالته في الصحف مثل باقي الناس، ففهم أن الغرض هو إبعاده عن الجيش الذي يستمد منه قوته في الحفاظ على استقلال سورية.. عرف أن أياما عصيبة ستمر بنا وأن أميركا قد حققت أهدافها في سورية عن طريق الوحدة مما لم تستطع تحقيقه عن طريق المؤامرات!..

أنا لم أعرف السراج مباشرة الا ّيوم أقلتنا طائرته الخاصة من مصر الى سورية في يوم الرابع عشر من تموزحين قامت ثورة العراق.. كان في زيارتنا في ذلك النهار، وقمت بعمل مرهق في إعداد وجبة الغذاء التي لم أستطع إنجازها قبل الرابعة مساء، وشاهدت بعيني التكريم الذي يحظى به من النظام المصري في المطار، فالنشيد المصري والسوري يعزفان لقدومه، وصف من الضباط والمخابرات يقف على الجانبين للسلام عليه، مما لا يحظى به "صانع الوحدة" الذي عزل في فيلا الجيزة على النيل، ومنع أي كان من زيارته أو الاتصال به..

دخل الى المقصورة التي خصصت لي وللصغيرين، وكنت جالسة بينهما أقص عليهما قصة.. سلّم علي وسألني ان كنت بحاجة الى شيء فأجبت بالنفي، وداعب الصغيرين وخرج. ثم عاد أثناء الطعام وسألني ان كنت أستسيغه، فأجبت بهز رأسي..

ما كنت لأظهر أبدا أمام الضباط الذين كانوا يجتمعون في منزلنا يتناقشون ويهللون للوحدة، فأنا لا أستقبل الا زيارات أصدقاء عفيف مع زوجاتهم، ولم يكن بينهم ضباط، ولهذا كانت الصور التي أكونها عن الضباط الذين يحيطون بعفيف هي ما ينقله لي عفيف عنهم..

كان السراج من بين الضباط الذين يحاولون دفع عفيف لاستلام مقاليد السلطة بطريقة غير دستورية فيرفض، وكان هذا بالإمكان حينذاك لأن الجيش بمعظم فئاته المتناقضة فيما بينها تواليه.. ولم يكن هؤلاء الضباط يفعلون ذلك إخلاصا للخط الوطني الذي يسير عليه، بل طموحا ذاتيا ليؤلفوا مجلس ثورة على غرار ما فعل عبد الناصر، ويتحكموا بشؤون العباد.. ولقد اشتراهم عبد الناصر عن طريق السراج قبل الوحدة، وعينهم وزراء بعدها، وعزل بذلك الفريق عن القاعدة الحساسة التي يستند اليها في الجيش.. وسرّح المخلصين لقضية فلسطين من ضباط الجيش، ليغدر به بعد شهر من قيام الوحدة، ويستفزه عن طريق عبد الحكيم عامر، مدمن المخدّرات، الذي كان يتصرّف كأنه مندوب سامي مصري يسرّح من الجيش أكفأ عناصره، أو يبعثرهم في سوريا، أو ينقلهم الى مصر.. وكان السراج ينقل أضابير رئاسة الأركان الى مكتب عامر، أو الى مكتب محسن أبو النور الملحق العسكري المصري في سوريا، دون علم الفريق مما جعله يثور على عامر ويقول له:

"نحن سعينا الى الوحدة بملء إرادتنا لنكون قوة تجاه أعدائنا، ولم نهزم في معركة عسكرية أمامكم لتعاملونا معاملة بلد محتلّ!"..

إثر هذه المشادة جاء عبد الناصر الى دمشق، ودعا الفريق دعوة خاصة الى قصر الضيافة وقال له: "ان عبد الحكيم عامر مدمن على تعاطي الحشيش وليس مؤهلا لقيادة الجيش، وانني أعتمد عليك كرجل كفؤ في قيادة الجيشين المصري والسوري معا، فان وقع بينك وبين المشير أي خلاف تعال الى القاهرة وأخبرني به!"..

استمرّ عبد الحكيم عامر في تصرفاته، يسرّح وينقل ويلغي صلاحيات الفريق ومسؤولياته كقائد للجيش السوري، مما دفعه ليذهب الى القاهرة ويقابل عبد الناصر.. ولم

يكن يدري أنه كمين وقع فيه.. لم يكن عبد الناصر يجرؤ أن يقيله في دمشق لشعبيته وثقة الناس به، فاستدرجه الى القاهرة ليتهمه بأنه يسعى ليقوم بانقلاب شيوعي في سوريا، وأقاله من منصبه..

سمعت خبر استقالته من الراديو، وكنت في الليلة السابقة للإستقالة قد حلمت حلما مريعا كان شبه كابوس وتشاءمت منه كثيرا.. حلمت أنه في المطار وحيدا أعزل وثلاثة أشقياء ملثمين أصابعهم على الزناد يطلقون عليه النار ويردونه قتيلا. فحين سمعت نبأ استقالته، أجهشت بالبكاء وأنا أردد "لماذا تستقيل يا عفيف وتضيع نضال عمرك في لحظة غضب؟".. كان أول ما فعلت في اليوم التالي أن اتصلت بعبد الحميد السراج ليساعدني على الإلتحاق بزوجي أنا والصغيرين، فاستجاب لطلبي وسهّل لي كل أمور السفر.. وحين وصلت عصرا الى مطار القاهرة شاهدته يأتي للقائي باسما بسمته الرائعة، وأسنانه النضيدة تلتمع بوهج الشمس المائلة للغروب.. كان يسير بين شرطيين فظننت أنه معتقل، وكنت قد أعددت نفسي وأنا في الطائرة أن أكون معه ولو في سجن.. أسرعت نحوه وأنا أعانقه وأبكي، وأمسك الصغيران به وهما يهتفان "بابا"، فطوقنا جميعنا وقادنا الى سيارة كانت في انتظارنا.. جلسنا في المؤخرة نحتضن سلام ويوسف ونتحدث، كانت السعادة تغمرنا جميعا للم شملنا وفهمت من عفيف أنه نقل من الفندق الذي ينزل فيه، وأننا سنقيم في فيلا على النيل في ضيافة عبد الناصر..

* * *

قلم حبر

كان صنيعة عبد الناصر في سورية عبد الحميد السراج، الذي وجد أن العمل مع عبد الناصر أكثر ربحا له وإرضاء لطموحه المريض.. وكان منفذا لكل سياسته الإجرامية في إرضاخ الشعب السوري للدكتاتورية المصرية حتى حدث الإنفصال كنتيجة حتمية لتلك الممارسات!.

بدأ السراج طريقه في مستهل الوحدة بأكذوبة كبيرة ادّعى فيها أن السعودية وضعت تحت تصرفه ملايين الدولارات للقيام بفصل الوحدة.. أما الحقيقة التي كنا نعرفها أنه هو الذي استدرج السعوديين لذلك، وبعد أن قبض المال ذهب به الى عبد الناصر. وقامت أجهزة الدعاية المصرية برفعه كبطل قومي.. وحين ذهبت الى مصر لألتحق بزوجي بعد

إقالته، كان هناك مزاد علني يقام لقلم حبر السراج، يرتفع سعره عن طريق رجال المخابرات ارتفاعا مذهلا!

هكذا كان عبد الناصر يزيح من سوريا بطلا حقيقيا طالما أوجع المستعمرين بكشف حقيقتهم، وجند لهم الشعب والجيش لصدهم هاتفا كلمته الشهيرة "لن يمروا!".. وزوّد هم بسلاح من الشرق بقي يتدفق عشرة أعوام على سورية بعد استقالته.. ويرفع الى الأوج بطلا مزوّرا، كل مؤهلاته الثقافية بكالوريا طالب فاشل، وكل مزاياه العمل على إيذاء الناس دون رادع من ضمير!..

فعل عبد الناصرنفس الشيء في العراق حين انتصرت ثورته، واستلم الحكم عبد الكريم قاسم.. فسعى الى إجهاضها وتحويل الحركة الثورية الى مدّ انتهازي عن طريق عبد السلام عارف!..

أراد الفريق أن يصنع وحدة مع مصر للمّ شمل الأمة العربية..

وأراد عبد الناصر أن يصنع وحدة مزيفة تحت المظلة الأمريكية!..

كان مفهوم الوحدة عند الفريق أن لا ترتبط سورية المتحررة من الإستعمار القديم من بلد لا يزال مستعمرا، ولهذا أدان في إحدى محاكماته محاولة وحدوية مع العراق يترأسها الدكتور العجلاني، لأن العراق كان تابعا لبريطانيا وأية وحدة معه تجعل سوريا المستقلة تحت رحمة العراق ونوري السعيد.. فلما حدثت ثورة العراق أسرع الفريق الى سوريا، ليكون على صلة بعبد الكريم قاسم وليتباحثا معا في ضم العراق المتحررة الى الوحدة السورية المصرية فتخفف من غلواء عبد الناصر، وتعيد للوحدة صفاءها في ممارسة خط وطني معاد للإستعمار الأميركي الطامع في الثروات العربية البترولية، والذي أخذ يزاحم الإستعمار البريطاني الذي كان يستأثر بتلك الثروات..

لكن كان لعبد الناصر والسراج موّال آخر، وهو إجهاض ثورة العراق الوطنية الى مدّ انتهازي ناصري يخدم الإستعمارالحديث الأميركي.. لقد اكتشف الفريق هذا الأمر حين جاء الى سوريا يوم قامت ثورة 14 تموز..

ان إدراك الفريق لطبيعة الإستعمار الحديث جعله متنبها صاحيا لتصرفات عبد الناصر والسراج، وفي مقال له عن تعاون الناصرية والإستعمار نشرفي العديد من الصحف ذكر أنه قبل الحشد التركي على الحدود السورية جرى اجتماع لمنظمة حلف

بغداد في اسطنبول.. وقد حضر هذا الإجتماع وزير الخارجية الأمريكية هندرسون، وعندما قامت ثورة 14 تموز في العراق فضح الثوار بعض وثائق حلف بغداد الهامة، ومن جملة هذه الوثائق قرار المجتمعين.. وكان البند الأخير منه يقول "ترى أميركا ضرورة تنبيه الرئيس جمال عبد الناصر الى خطورة التطورات الأخيرة في سورية" ويضيف الفريق: "ان الرئيس عبد الناصر لم يكن نائما عندما فضحنا مؤامرة ستون وطردناه من سوريا، فهو لم يكن بحاجة الى التنبيه.. وهذا التنبيه اللطيف لا يمكن أن يأتي الاّ من صديق يطمع كثيرا في مساعدة صديقه". (ستون هو أحد عملاء السي آي اي، وواحد من ستة قاموا بمساعدة زاهدي على الإطاحة بحكم مصدق في ايران، وكان معه جبتون حين طردا من سوريا فذهب الأخيرالى مصر وأسلم باتريس لومبا الى أعدائه.. وكان الفريق يراه أحيانا في مكتب محسن أبوالنور الملحق العسكري لمصر في سوريا قبل الوحدة)..

كان الفريق قبل كل الناس يكتشف يوما بعد يوم شخصية عبد الناصر المصاب بجنون السلطة، وسياسته الميكيافيلية التي أدت الى الكثير من الويلات في الأوطان العربية: سوريا والعراق ولبنان واليمن.. وكتب "الناصرية في جملة الإستعمار الحديث" في وقت مبكر بعد انفصام الوحدة بين سورية ومصر.. لقد أجهض ناصر الحركة الوطنية في سوريا التي كانت تعزز استقلالها وتوطد حريتها وتدفع الهجمة البريطانية والأميركية عن ربوعها.. وفتّت الجيش السوري، وسرّح منه أخلص عناصره المستميتة في حرب اسرائيل لاسترداد أراضيها التي شردت منها، وضرب اقتصادها لصالح اقتصاد مصر، وقام بتنظيم شبكة مخابرات متطورة وملأ السجون بالشرفاء من الناس.. ومنهم من صفي جسديا تحت التعذيب على يد صنيعته في سوريا، عبد الحميد السراج! فكانت سنوات الوحدة كابوسا على سوريا عانى منها الناس من أقصى اليمين الى أقصى اليسار تحت حكم ديكتاتوري ينفق بسخاء على شراء الضمائر وإفساد الناس!..

* * *

حديث أخت عفيف صديقة عن أخويها

طوال فترة الوحدة كان صلاح معتقلا في سجن المزة بأمر من السراج، ثم وقع خلاف بين عبد الحكيم عامر والأخير، وأفرج عن صلاح قبيل الإنفصال بفترة وجيزة..

واستدعى عبد الحكيم عامر صلاح وقال له بأنه يودّ أن يرى والده.. وبعث اليه بسيارته وسائقه في موعد المقابلة، وابتدره بقوله:

-اعتبرني كابنك...

-ولكنك لا تنزل في خانتي! قال والدي مبتسما..

ضحك الرجلان وقال عبد الحكيم عامر:

-فضفض بما في نفسك، وأخبرني عن إساءات عبد الحميد السراج لأسرتكم.

حدّثه عن صلاح وتاريخه النضالي، وكيف سافر الى الصحراء الليبية لينقذ الأسلحة التي تركها جيش رومل من بين الإلغام، وكم من خبير وجندي سقط شهيدا أمامه، كانت معركة الحصول على السلاح أصعب من نضاله في فلسطين، وأصبح عقيدا في الجيش وأسلم المكتب الثاني في الوقت الذي كان السراج فيه ملازما ومرافقا للشيشكلي، ثم وقع خلاف بين صلاح والشيشكلي بسبب دكتاتورية الأخير وتوجهه غير الوطني، وبسبب رغبته في إزاحة صلاح عن المكتب الثاني، وتعيين أحد أزلامه ابراهيم الحسيني الذي قام باغتيال العقيد محمد ناصر عام 51، ومنذ ذلك الوقت ترك الجيش وعمل في التجارة، فما الذي فعله كي يسجن في زنزانة؟ أتأخذونه بذنب أخيه الذي صنع لكم وحدة طالما حلمت بها الأمة العربية دون أن تحققها، فكافأتموه بإقالته من قيادة الجيش، وملاحقته؟ وحين نجا من محاولات الإغتيال المتكررة وغادر دمشق لم ينج من التزوير والتشهير به من مخابراتكم في مصر، ومخابرات السراج في سوريا، وصحفكم العميلة.. حتى نسائنا لم ينجون من حملات التفتيش التي يرسلها السراج الى بيوتنا، ومن الإضطهاد والمراقبة والحساب العسير في العمل!

قال عبد الحكيم عامر: "ليعد عفيف الى سوريا، وليختر أي منصب يريد.. اننا لا نأخذ عليه شيئا، لا أنا ولا الرئيس!".. قال والدي:

-أهو عصفور في قفص أحمله وأسلمه اليكم؟ انني لا أدري حتى في أي بلد هو، أنتم أغضبتموه وأسأتم اليه، ولديكم وسائلكم لتعرفوا مكانه وتتصلوا به، وهو يقدر حسن نيتكم.. [في هذه الفترة بالذات زارنا سفير بلغاريا في سوريا وكان صديقا للسراج وحدّثنا بأن السراج طلب منه اللجوء الى بلغاريا فرفض]

* * *